

المجتمع الشامي من خلال كتابات المستشرقين في القرن 19 ميلادي

الرحالة الفرنسيين أنموذجا

Levantine society through the writings of orientalist of the 19th century and the french traveler as a model

الأستاذ: المشرف حنيفي بن ناصر*	الطالب: بركان بن يحيى*
جامعة عبد الحميد ابن باديس (الجزائر)	جامعة عبد الحميد ابن باديس (الجزائر)
pr.bennaceur@gmail.com	berkanelamisse@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021.../...05...../...15.... تاريخ القبول: 2021...../....07...../....04..

ملخص: اشتهرت الكتابة في فن رحلات شعوب الأمم عبر الزمان إلى العصور الحديثة، ونتج عنها العديد من المؤلفات والوثائق التاريخية والحضارية خاصة في القرنين: الثامن عشر، والتاسع عشر. وازداد اهتمام الغرب بالشرق منذ زمن بعيد وكان لحملة نابليون بونابرت أثرها في تقوية تفاعل حضارة الشرق والغرب. لقد رصد بعض الرحالة مشاهداته في بلاد الشام كعالم غريب، للمجتمع الشرقي الشامي وما يخفيه الشرق. وكشف أحوال المنطقة في تلك الحقبة.

كلمات مفتاحية: التاريخ، الرحلة، الشامي، العادات، ثرات.

Summary: Writing became famous in the art of the travels of the peoples of nations through time to modern times, and it resulted in many historical and civilized books and documents, especially in the two centuries: the eighteenth and nineteenth centuries. The West's interest in the East increased from a long time ago, and Napoleon Bonaparte's campaign had an impact on strengthening the interaction of the East and West civilization. Some travelers have recorded his observations in the Levant as a strange world, of the Levantine Eastern society and what the East hides. And revealed the conditions of the region in that era.

. مقدمة:

ان معالجتنا لتحليل ابعاد ومحددات الرؤية الاستشراقية، في حقل الدراسات التاريخية، غايته الاساسية - في هذا - هو الوصول لتحديد المباني الفكرية والاسس المنهجية التي قامت عليها هذه الرؤية وتشكلت ابعادها من جهة، ومعرفة اثارها وانعكاساتها في طبيعة النتائج البحثية التي انتهى اليها الرحالة المستشرقين في معالجتهم لقضايا وإشكاليات التاريخ الشامي من جهة اخرى، اي اننا نذهب في هذا المقال الى التأكيد على ان طبيعة المعرفة والكتابة التاريخية عند المستشرقين بقيت في معظم مراحلها غير منفصلة بأبعادها والصراع التاريخي القائم ، عن المرتكزات والمحددات النظرية التي رافقت عملية تشكيل رؤيتهم لقضايا التاريخ الاسلامي وأبعاده.

لقد اتخذ هذا الصراع التاريخي - الذي هو من منظور المركزية الغربية صراع حتمي - أشكالاً عدة، منها ما أخذ مظهراً دينياً تجلى بأبرز صوره في الحملات الصليبية، أو ما تعرف في فضاء الفكر الغربي وأدبياته بـ"الحروب المقدسة"، ومنها ما كان يتخذ شكلاً ثقافياً وحضارياً، وذلك بمحاولة الحط من أصول الثقافة العربية وقيمها ومنابعها - وهذه المهمة قد قام بها مجموعة من المستشرقين الذين عرفوا بسم الرحالة ستتناولهم هذه الدراسة- واعتبارها امتداداً للحضارة الإغريقية من ناحية التأثير بعلومها ومعارفها، وحتى في مجال العقيدة كان هذا الصراع واضحاً في الحملات التبشيرية، والتي كان من أهدافها الأساسية تشويه معالم الدين الإسلامي وأسسها، وإفراغ محتواه الروحي، والإعلاء من شأن المسيحية بوصفها ديانة عالمية بديلة لها خصوصية السبق الزمني والأصالة على مستوى الديانة التوحيدية. يتضح مما تقدم أنه إذا كانت مناهج المستشرقين بتنوعها وتعددتها، قد أضحت هي الممارسة العملية التي من خلالها يستطيع الباحث تقييم جهودهم، ومعرفة طبيعة ما توصلوا إليه خاصة في حقل دراستهم للتاريخ الإسلامي، فإن هذه الممارسة لم تكن يوماً بمعزل عن المواقف الأيديولوجية التي تسربت إلى تلك المنهجية، والتي ظهرت في تحليلاتهم ومعالجاتهم إما بشكل صريح أو مضمّر.

2. العادات والتقاليد**2.1 1. اللباس . - دمشق:**

_ فيها يرى الفرس ذوو القلائس الفروية و الخناجر الزنارية ، و يرى السوريون بحلهم المخططة و الكوفيات و العقل الوبرية ، و ترى النساء العربيات ذوات المآزر البيض التي تلمع عيونهن المتوقدة من خلالها ، و يرى الدمشقيون بطرابيشهم الحمر أو بعمائمهم البيضاء و الألبسة الحريرية المخططة بخطوط بيضاء و سوداء و مشدودة بزنانير ، أما الحجاج فيرون بثيابهم الرثة ، و يرى قواسو القناصل ذوو السياط و الملابس الموشاة الزرق و الخطوات الموزونة ، و يرى الموظفون العثمانيون يلبسون ردائهم الرسمي قاتم اللون ، و يرى فرسان الدروز

العجب المنطقون بالسلاح ، و يركبون في خيول تعلوها سروج جلدية قرمزية مزينة بقطع لامعة من الذهب و الفضة ، و ترى قطر الجمال يحرسها تجار آتون من كرمان و الأناضول و شواطئ الفرات ¹.

2.2 الولادة و الختان:

تعد الولادة و الختان من بين المناسبات التي يحتفل بها العرب ، و كان الطفل يختن في سن السادسة أو السابعة من عمره ، و يسار به في موكب عظيم في المدينة لابسا ثيابا فاخرة فوق حصان مزين و معه أطفال آخرون يلبسون ثيابا جميلة ، و يتقدم الموكب الختان و مجموعة موسيقية ، و النساء يزغردن على الموكب ليصل بعدها الموكب للمسجد ثم يتوجهون مباشرة لبيت الوالدين ليتناول الناس الطعام ، و يختن الحلاق الصبي بعد الإنتهاء من الأكل و على صوت الصنوج خنقا لصوته ، و يحيي المدعون ليلتهم بشرب المرطبات و القهوة و النرجيلة.²

2.3 الزواج:

تعد حفلات الزواج من بين الأفراح التي تقام ، و كان الرجل يبحث عن امرأة ذات مواصفات قبل الزواج و لأجل ذلك يكلف امرأة كبيرة العمر تبحث له في العائلات عن فتاة صالحة ، و يختار واحدة ممن وصف له جمالهن و كمالهن ، ثم يفوض شخصا للخطبة و تسأل المخطوبة عن رأيها ، ثم يفاوض الخطاب أباه في مقدار مهرها لأنه هو الذي سيدفعه ، فإذا كان هناك تراضي يجيء الخاطب رفقه بعض أصحابه إلى بيت العروس و يحضر معهم شهود و كاتب ، و عندئذ يلفظ بصيغة العقد الشرعية و يدون الكاتب ما وقع ، و بهذا يكون عقد النكاح قد انتهى شرعا و لا تزف العروس إلى زوجها إلا بعد أيام تقام فيها المراسم و الحفلات ، و ترسل في موكب مؤلف من الأصحاب و الموسيقيين إلى الحمام ، ثم تبعث إلى بيت أهلها حيث الموائد ، و تبعث مزينة إلى بيت زوجها المعد بعناية لإستقبالها ، و يكون ذلك أيضا في موكب كبير و عندما يتفرق الناس يمكن لزوجها أن يرفع عنها الستار ليراها لأول مرة³

2.4 المآتم:

يوضع الميت بعد أن يكفن في تابوت و يغطى التابوت ، و يتناوب حمله خمسة أو ستة من أصدقائه ، و يتقدم الجنازة فريق من العميان و المساكين مرتلين بعض آيات القرآن ، و يأتي خلفهم الأقرباء و الأصحاب و النائحات ، و يصل على الميت في المسجد ثم يدفن في المقبرة و يوجه وجهه لمكة ، و إذا كان الميت غنيا

¹ أحمد عرفات القاضي ، 2010م، الإسلام والغرب إشكالية الصراع وضرورة الحوار ، ط1، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 123.

² إدوارد سعيد ، تر كمال ابو ديب، 1984م الاستشراق "المعرفة، السلطة، الإنشاء"، ط2، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية، ص 50.

³ جان دي جاك واردنبرغ ، 2014م المستشرقون، ترجمة، أنيس عبد الله الخالق محمود، المستشرقون ط1، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 151

يقام حول قبره مكعب تعلوه قبة ، و إذا حلت الأعياد زينت القبور بالأزهار و تقضي النساء حولها أياما و هم يدعون.⁴

2.5 القهوة و التدخين و تعاطي الحشيش:

يتردد الناس كثيرا على المقاهي ، و تتكون عادة المقاهي من حصر و أكواب و نرجيلات ، و تمتاز القهوة المصنوعة فيها بحسن الصنع، و معرفة الشرقيين بالقهوة أمر حديث و من العادات أن يتناول المرء أثناء شربه للقهوة التبغ الأشقر العطر اللذيذ الذي لا يعرفه الغرب⁵ ، و هم يستعملونه عموما في نرجيلات طويلة الأنابيب و ذات النماذج العديدة ، فيمر الدخان من أنيتها المملوءة بالماء قبل أن تصل للأفواه ، و يبلى التبغ و يوضع في أعلى النرجيلات ، و توضع عليه نويرات تحترق مع التنفس ، و تجد أيضا السيفار و الحشيش الذي هو مادة مسكرة من أهم وسائل اللهو و التسلية ، و الفلاح الشرقي الحقيير يصبح سعيدا حينما يتعاطاه و كأن له حظ الملوك.⁶

2.6 الألعاب و التمثيل و الرقص و القصة:

تختلف ألعاب العرب قليلا عن الألعاب في أوربة ، فلعبة الشطرنج و النرد و لعبة الدامة مما ألفه العرب ، و المصارعة و الرماية و لعبة الكرة و السايفة و لعبة الصولجان مما هو شائع بين العرب ، إضافة إلى لعبة الرمح و سباق الخيل من أكثر ما يولع به العرب التمثيل يعتبر أيضا من وسائل التسلية ، و يتذوق الشرقيون الموسيقى و الأغاني كثيرا ، و قلما تدخل مقهى شرقي و لا تسمع فيها موسيقى من ألحان الرباب و الكمان و المزمار الحادة ذات الصوت المحزن ، و يعد الرقص من الأمور التي يقوم بها أشخاص مأجورون ، و يحمر العرب خجلا من الرقص العلني ، و ليس مما يلائم الذوق السليم عند العرب أن يرقص رجل متزن في المسرح على أنغام آلات الطرب النساء اللاتي يلعبن بالعوالم هن من يرقصن ، و تتألف هذه الرقصات من حركة البطن و الخصر دون بقية البدن⁷ ، إضافة إلى رقصة السيف المشهورة ، حيث ترفع الراقصة سيفا و تقوم بحركات متنوعة و توجد مجموعة أخرى مكلفة بالغناء ، و تمس الرقصات رؤوس الزبائن بالسيف دون إيدائه.

⁴ شانتال ميلون دلسول ، 1994م، ترجمة: جورج كتورة، الأفكار السياسية في القرن العشرين، ترجمة ، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص25

⁵ صادق جلال العظم ، 1980م الاستشراق والاستشراق معكوساً، ط1، بيروت : دار الحداثة، ص35

⁶ عبد الإله بلقزيز ، 2011م، الاستشراق وحدوده المعرفية المنهجية، ، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص44

⁷ عبدالله إبراهيم ، 2010م، المركزية الغربية، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص68

2. 7 القصاصون :

تعد قصص العجائب التي يتلوها القاصون المحترفون من أهم وسائل التسلية عند العرب ، و هذه الحرفة منتشرة بكثرة و في جميع المناطق ، و لهم حظوة كبيرة لدى الأهالي ، و يقصون القصص إرتجالا في بعض الأحيان ، و يقتصرون في الغالب على إنشاد قصيدة أو تلاوة قصة أو رواية ألف ليلة و ليلة ، و يذكر غوستاف لوبون أنه أثناء زيارته لحى من أحياء يافا الشعبية شاهد جمعا من الحماليين و النواتي و الأجراء ... يستمعون على نور مصباح إلى قصة عنتره بعناية ، يقول غوستاف لوبون عن القصاصين : " ندرك ناحية من أخلاق العرب بما نراه من تأثير القاصين في الجمهور العربي الذي نعلم أنه ذو حيوية مع وقار ، و قوة خيال مع تمثيل ، و الذي يبدو أنه يرى ما يسمع ، و الذي يبلغ من فرط التأثر ما يظهر أنه يسمعه حقا "⁸

ذكر غوستاف لوبون رواية لأحد السائحين يصف فيها حالة المشرقيين أثناء سماعهم للحكايات يقول فيها : " لينظر الإنسان إلى أبناء الصحراء أولئك حين يستمعون قصصهم المفضلة ، فهو يرى كيف يضطربون و كيف يهدأون ، و كيف تلمع عيونهم في وجوههم السمر ، و كيف تتقلب دعتهم إلى غضب و بكائهم إلى ضحك ، و كيف تقف أنفاسهم و يستردونها ، و كيف يقاسمون الأبطال سرائهم و درائهم ، حقا إن تلك لروايات و إن الحاضرين لممثلون ، و حقا إن الشعراء في أوربة مع نفوذ أشعارهم و سحر بيانهم و جمال وصفهم ، لا يؤثرون في نفوس الغربيين الفاترة عشر معشار ما يؤثر به في نفوس السامعين ذلك القصاص الذي هو من الأجلاف ، فإذا ما أحيط ببطل الرواية إرتجف السامعون و صاحوا قائلين لا لا حفظه الله ، و إذا كان في ساحة الوعى محاربا كتائب أعدائه بسيفه أمسكوا سيوفهم كأنهم يريدون إنجاده "⁹ ، و إذا ما كان يذهب فريسة الغدر و الخيانة قطبوا و صرخوا قائلين لعنة الله على الخائنين ، و إذا ما قضى عليه أعداءه الكثيرون تأوهوا و قالوا تغمد الله برحمته و فسح له في دار السلام ، و إذا ما كان العكس فرجع منصورا هتفوا قائلين المجد لرب الجند ، و يكون هتافهم وقت ما يذكر القاص محاسن الطبيعة و لا سيما الربيع طيب طيب " ، و لا شيء يعدل سرورهم الذي يبدو على ملامحهم عندما يصف القاص امرأة جميلة ، فتراهم ينصتون إليه إنصات من يكاد ليه يطير من الوجد ، و إذا ما أتم وصفه قائلا : " الحمد لله الذي خلق المرأة " قالوا قول المعجب الشاكر الحمد لله الذي خلق المرأة.

10

3. بيروت :

القهوة في الشرق تصب للضيوف في جميع المناسبات ، فهي تصب عند الباشوات و عند الفقراء أيضا ، و قد إضطر الأوروبيون الذين يسكنون المنطقة إلى إتباع هذه العادة ، حتى أنه إذا لم تقدم القهوة لإبن البلد فإنه ينسب

⁸فرانشيسكو كابرييلي، هاشم صالح، 2000،الثناء على الاستشراق، ط1، بيروت، دار الساقى،ص61

⁹فرانشيسكو كابرييلي، هاشم صالح، 2000،الثناء على الاستشراق، ط1، بيروت، دار الساقى،ص61

¹⁰اقيس ماضي فرو، 2013م، المعرفة التاريخية في الغرب مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، ط1، بيروت،

المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات،ص97

هذا الإهمال إلى قلة الأدب معه ، بل و يعتبر أن كرامته قد جرحت ، و هذه العادة نفشت كثيرا إلى غاية أنها أصبحت من عادات الأوربيين فأصبح النزق الفرنسي يدفع الكثيرين إلى التدمير من عدم تقديم القهوة لهم في البيوت الأوربية عازين ذلك إلى قلة الأدب و الإحترام ، أما بالنسبة للمقاهي فهي كثيرة و هي عبارة عن غرفة مظلمة قديمة البلاط ، تنصب حولها مقاعد من الحجارة مفروشة بحصير ، تنتشر فيها عدة كراسي علو الواحدة منها خمسة و عشرين سنتمتر ، يجلس عليها الزبائن المتفرجون في الداخل و البعض الآخر يجلس في الطريق العام.¹¹

أما في المدخل فيوجد موقد عليه إبريقان أو ثلاث للقهوة و عدد من الفناجين مغلقة بالنحاس الأصفر ، و إلى جانب الموقد توجد النرجيلات و هي عجمية الأصل يدخل بها التبناك و هو نوع من التبغ ذو طعم حاد جدا ، و هذا ما يجبرهم على تدخينه بالماء فبغير ذلك لا يمكن إحتماله ، أما في المساء تكون المقاهي ممتلئة و تمتد الجلسة إلى ما قبل العشاء و قلما تتجاوزه ، و يستغل الفرصة القصاصون من اجل سرد حكاياتهم ، و لاعبو الكركوز لتحريك مواهبهم و إلهاب قرائحهم ، و هم يقومون في بعض الأحيان بعروض تستهزئ بشخصيات محترمة و هو من الأعمال التي تتسبب في إفساد أخلاق المتفرجين الذين يضمون بينهم عدد كبير من الأطفال الصغار¹² ينتقد هنري قيز كتابات فولني الذي تحدث عن الرقصات اللواتي زعم أنهن يظهرن في بعض الأحيان ليثرن الجماهير الهادئة بالرقص ، و يقول : " أستطيع أن أقول و ليس هذا نتيجة لإختباري بل هذا ما قاله الكثير من الأوربيين الذين زارو المنطقة و أقاموا فيها أن امرأة واحدة و لو كانت أشد النساء فجورا و إباحية لا تجرؤ على الظهور في هذا المحل العمومي إن القهوة و تدخين النرجيلة و حضور تلك المشاهد لا تكلف أكثر من عشرين بارة (عشر سنتيمات)¹³.

3. 1 الخانات :

يوجد في بيروت عدة خانات ينزل فيها الدالون و السياح و المواطنون ، و هم يحلون في غرف صغيرة و هذا كل ما يرغبون فيه ، و لما كان كل شخص يصطحب معه الأمتعة التي يحتاج لها في سفره فإنه يتمركز حالا دون اللجوء إلى بائع المفروشات و السجادات ، ليبسط بعدها سجادته على الأرض ثم يرتب أمتعته و يبذل ثيابه بسرعة ثم ينزع من أجربته الحوائج التي تزود بها، و تعتبر السجادة و العباءة و الأجرية من أهم الأشياء التي يحتاج إليها المسافر، فالأولى تقوم مقام السرير و الثانية يجعلها لحافا و الثالثة تحشى بثياب التبديل فتقوم مقام

¹¹ مجموعة باحثين، تر هاشن صالح، 2000، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ط2، بيروت، دار الساقى، ص75.

¹² محمد عابد الجابري، 1980م، نحن والتراث "قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط1، بيروت، دار الطليعة، ص152

¹³ محمد نور الدين افايه، 2006م، الإسلام في متخيل الغرب "في مكونات الصور النمطية الغربية عن الإسلام، بيروت، الشبكة العربية

المخدة أما الخرج فينوب عن الصندوق أو الحقيبة فتجعل فيه أدوات المطبخ و المؤن البسيطة، و هذه المؤن التي يصطحبها المسافر توفر الكثير من النفقة فلا يدفع المسافر إلا بدل الزرابة.¹⁴

3. 2 العقوبات :

الشرطة هي المكلفة بحفظ الأمن و هي تتبع نفس الأساليب القديمة و من بينها أنهم يركبون المحكوم عليه حمارا و يديرون وجهه صوب ذنب هذا الحيوان ، و ذلك بعد أن يسودوا وجهه و يضعوا على رأسه جلد خروف مليء بأوساخه ، ثم يقودونه في المدينة على هذه الصورة ، طائفي نبه شوارعها و يصحب ذلك صخب كبير و هتافات من طرف المتفرجين.¹⁵

3. 3 الاستحمام:

لم تخصص الحمامات لتطهير البدن فقط و إنما كان لها فائدة طبية تعتبر الحمامات من بين أسباب إنتقال الأمراض المعدية كالجلدية و أولها و أسرعها مرض الجرب الكثير الإنتشار في البلاد أما من يريد الإستحمام فإنه ينزع ثيابه فوق أحد المقاعد الخشبية الكبيرة القائمة حول الغرفة الأولى ، ثم يستعيض عن ملابسه بمنشفة يضعها فوق وسط جسمه ، و الغرف مشتركة بين الجميع إلا أنه يمكن الإختلاء في أحد المقاصير القائمة في الزوايا الأربع ، و ما من شك أن المستحم يكون مرتاح البال على أغراضه ، و كان هناك مزاعم تقول أن الذي يأكل السمك و اللبن قبل أن يستحم يصاب بالجنون¹⁶

3. 4 زيارة المقابر:

المقابر توجد بصفة عامة قرب المدن و سبب هذا القرب هو الإعتقاد الذي يوجب الإستعجال في دفن الموتى لأن ملك الموت في انتظاره في اللحد لإستماع جوابه الأول ، و تزار القبور كثيرا عند المسلمين و النساء أكثر زيارة من الرجال للمقابر ، كما أن في جعلها قرب المدن و حولها و على مرأى من الجمهور تسهيل لمهمة الزائرين ، و محافظة أيضا على سلامة النساء و عفتهم التي قد تنتهك إذا كانت في أماكن بعيدة أو منزوية من أهم نزه النساء زيارة المقابر فهي موضع تسليةهن ، بل هي الطريقة الوحيدة التي تمكنها من مغادرة المدينة و شم رائحة الجبل و هن لا يحجمن عن إستغلال هذه الفرصة عندما يسمح بذلك ، و يجتمعن حلقات حلقات حول الأضرحة و يتحدثن أو يصلين ، بينما يقوم أحد الشيوخ عادة ما يكون أعمى بتلاوة القرآن على قبر الميت ، و يؤكد البعض أن النساء يقمن أثناء طوافهن بين القبور بلقاءات لا تكون في أغلب الأحيان بريئة ، و إن لم

¹⁴ محمد نور الدين افايه، 2009م، الأنا والآخر"في مكونات الصور النمطية للمجتمع الشامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص212

¹⁵ هشام جعيط، 2007م، أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحدثة، ط3، بيروت، دار الطليعة، ص198

¹⁶ وجيه كوثراني، 2000م، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل "دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، بيروت، دار الطليعة، ص310

يجدن الأشخاص الذين يرغبون في مقابلتهم يعبرن عن عواطفهن بترك باقة من الزهور ذات رمز على ضريح الراحل للعزیز 16

3. 5 المستوى الثقافي:

لا يستطيع سكان سوريا أن يفهموا معنى الحياة و يتحركوا للأعمال التي يأتي بها العلم كل يوم ، فالثقافة أمر يصعب تعميمها بينهم و جعلها في متناول الجميع ، فالبلاد هنا محرومة من الجرائد لا يذاع و لا ينشر منها شيء و لا تجد شخصا واحدا يتعاطى الكتابة و لو على سبيل التسلية ، و القصاصون الذين يتولون كل مساء خلال ساعة تسلية عاطلي المقاهي يستقون معلوماتهم القصصية من مخطوطات بالية .

و كان تفكير الشرقي منصبا على مشاغله البيتية أو التجارية ، و لا يشغله أي شيء في العالم عن هذا الشيء ، و إن تسليمه للقضاء و القدر يعيده دائما إلى حالة الهدوء و السكينة و التي هي غالبية على طبعه

في المساء يذهب السكان إلى بيوتهم و ذلك بعد غروب الشمس ليتعشوا فيها ، و هم لا يبرحونها و قلما يسمحون لأنفسهم بالقيام بجولة صغيرة على الأقدام ، و إن فعلوا ذلك فإن الجولة لا تتعدى المدافن أو إحدى المناطق القريبة من المدينة ، فهم كانوا يخشون إقلاق الحكومة في حال ابتعادهم ، إضافة إلى أن خروجهم للمنتزهات على خيولهم أمر نادر جدا¹⁷ في ما يخص الأشخاص الملتزمين فإنهم كانوا يفضلون الذهاب إلى المساجد في مواقيت الليل بدلا من الصلاة في بيوتهم ، و قد تحضر عليهم الصلاة بالمنزل في بعض الحالات لأن الضوء الجزئي يذهب فيذهبون إلى المسجد مباشرة بعد خروجهم من الحمام، و البعض الآخر يرى أنه من أسباب الراحة أن يستطيعوا القيام بالتطهر الكامل في بيوتهم السوريون معروفون بمبالغتهم في المدح ، و معروفون أيضا بالعطاء و الهبات ،المسلم إن لم يكن له أولاد ذكور يأكل منفردا في خدره ، أما النساء و البنات فيجب أن ينتظرن ريثما ينتهي من الأكل ، و من تقاليدهم أن يأكل الرجل وحده الثمار عند أول نضجها أو عندما تكون مرتفعة الثمن.¹⁸

إن روح الألفة في المجتمعات الشرقية منعدمة تماما حيث يظل الرجل وحده في خدره متجها، و ذلك للمحافظة على هيبته و سيادته و كي يوحى لنسائه و أطفاله بشعور الامتثال الذي يكفل له سيادتهم

إن المسلم في حياته خير و أمين و صالح إلا اتجاه زوجته فإنه يأخذ حذره منها حينما يخرج من المنزل و يصبح رجلا شكاكاء، سكان بيروت مشهورون ببخلهم فالأكثر حديثو النعمة ، و لذلك يرجعون إلى طبيعتهم الأولى فكلما هموا بالتعم بثرواتهم التي حصلوا عليها يعتبرونها وديعة بين أيديهم ، و هذا راجع إلى طبيعة تقديرهم الذي

¹⁷ غوستاف لوبون، تر، محمد حسنين، 1999م، التاريخ والخضارة، مصر ، القاهرة، دار الهدى للنشر، ص 325

¹⁸ وجيه كوثراني، 2000م، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل "دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، بيروت، دار

جلبوا عليه ، فهم لا يفقهون معنى الترف سواء كان في لباسهم أو على مواعدهم أو في مفروشاتهم ، يرتدي السوري الميسور الحال عادة أكثر ما تحتويه خزائنه، و عليه أن يلبس دائما أحسن ما يملك كي يظهر للناس غناه.¹⁹

4. علاقة المسلمين بالمسيحيين:

إن مسلمي مدن سوريا الداخلية يتميزون يهيجانهم و ثورانهم الدائم ، فأقل بادرة تمس دينهم تحملهم على انفعال كبير ، و علاقتهم بالتجار الغربيين قد ذرت عليهم الكثير إلا أنها لم تساهم أبدا في تغيير طبائعهم معهم ، و مع ذلك فلبعض منهم علاقات قوية مع المسيحيين ، و خاصة إن كانوا ممن يحبون شرب الخمر فللأترك حب و ميل لتقليد الفرنسيين في طريقة الشرب²⁰

4. 1 شرب الخمر:

السكر آفة قديمة عند العرب و على الرغم من زهدهم في أسباب ترف المعيشة كانوا مولعين بالخمرة و السكر معاملة النساء:

أنصف النبي صلى الله عليه و سلم النساء أكثر مما أنصفهن الرجال الذين اتبعوا شريعته ، فلسن في نظر هؤلاء أكثر من قيمة متاع نافع ، فالرجال ينظرون إليهن نظرة الأطفال إلى الدمى ، و يفهم الناس عادة من السكون الذي يخيم على غرفة المرأة النفساء إذا كان الطفل الجديد صبيا أو بنتا ، فإذا كانت أنثى خيم الذعر على البيت و من فيه ، و القابلة هي تحمل النبا و شعور البهجة الذي يثيره فيها ميلاد الصبي ينقل بسرعة الكهرباء ، فما إن تسري البشري في الداخل حتى تعلن في الخارج بالزغردات تقدفها أفواه النساء في المنزل أكثر من مئة مرة و عندئذ يهنئ الجميع الأب و تكون سعادة العائلة على أتمها، و الفتاة لا تحظى عندهم إلا بالثقافة المنزلية فهي تكنس عندما تستطيع حمل المكنسة التي لا تتجاوز في طولها متر و نصف ، و بمجرد ما يشد ساعدها تستخدم في الغسل و الطهي و أشغال البيت الأخرى ، فالولائم العربية تستدعي عدة تجهيزات فهناك نجد دق اللحم في جرن لتحويله إلى معجون ناعم و يعرف بالكبة و اللحم يمزج بالأرز و يحشى به ورق العنب و الملفوف و الكوسا و البادنجان ، و هذه الطبخات الطيبة تقتضي وقتا كثيرا و مجهودا كبيرا ، أما الشؤون الأخرى فلا تتعلم منها الفتيات التركيات إلا القليل مثل الخياطة و التطريز على الطراز الشرقي الغليظ ، و هذه الأعمال هي التي تشغل بها البنات ، و غالب الظن أنه لا يوجد نساء متعلقات و يعرفن القراءة و يزعم الرجال أنهم يقللون من خبثهن و مكرهن²¹

¹⁹ نفس المصدر، ص311

²⁰ نفس المصدر، ص312

²¹ هشام جعيط، 2007م، أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحدثة، ط3، بيروت، دار الطليعة، ص200

4. 2 الاستحمام:

العادات المشرقية تشجب المخالطات الأجنبية حتى بين النساء ، و لا يمكن للنساء الخروج من منازلهن إلا لزيارة نسيباتهن القريبات¹ ، و من أهم عادات النساء الإستحمام فإذا فقدنه فقدن أهم أسباب الميزات ، و أزواجهن لا يمنعهن منه لأنهم على يقين بأنه المكان الوحيد الذي لا يتعرض فيه شرفهم لأي خطر ، و النساء يذهبن إلى الحمامات عملاً بتعاليم دينهن التي تلزمهم بالوضوء الكامل ، إنهن يهيئن يوم ذهابهن إلى الحمام كل حوائجهن منذ الصباح الباكر ، فيجعلن من المناديل رزماً مختلفة تصلح لعدة شؤون و هي متعددة ، فمنها ما يكون مصنوعاً من الحرير أو القطن ، و منها ما يكون مربع الحجم ذو لون أبيض ، و النساء يتلشن بأربعة مناديل في وقت واحد على أكتافهن و على رؤوسهن ، و إن شئ أن يكن ظريفات يبدلنها مرة أو مرتين بعد خروجهن من المنزل ، و الوقت الذي يقضيه في الحمام لا يقل عن ثلاث أو أربع ساعات ، و هن يأكلن و يشربن أثناء ذلك حتى أنهن يدخن الغليون و النرجيلة في أوقات إستراحتهن ،

إن مشاغل النساء في الحمام كثيرة ، فهناك يجتمعن لينظفن جلودهن بأكياس من الشعر الناعم ، و يضعن على رؤوسهن الحناء ليصبح الشعر ناعماً ، ثم يدلكن أجسامهن بمادة لزجة ممزوجة بماء الورد ، و أخيراً يمشطن و يصفن شعورهن ، و كن كالعائلة الواحدة داخل الحمام و لهذا يبقين وقتاً طويلاً ، كما أن لغو النساء يشتد في الحمام فهناك يلقن بعضهم البعض ما حفظنه من حاضناتهن اللواتي كن يدلكن أجسامهن و يغسلنها .

تتألف حمامات الشرق من ردهات واسعة معقودة بالحجر ، تعلوها قباب تطل منها كوى صغيرة مدورة لتستقبل ضوء النهار ، و إن هذه الحمامات لا تعرف الهواء مطلقاً لأن كل نافذة منها مجهزة بعدسة من الزجاج .²²

4. 3 الزواج:

عندما تطلب فتاة ما إلى الزواج تكون عادة في عمر أربعة عشر أو خمسة عشر فإن الأب لا يستشير زوجته أو إبنته بل يكتفي بإعلامهم فقط أنه قد أعطى الكلمة ، و أن حفلة العرس ستكون في اليوم الذي عينه إن العروس تجهل في الغالب اسم خطيبها و إذا أرادت أن تراه لا يكون ذلك إلا بواسطة ثقب موجود في النافذة ، أو خصاص الباب أو بصورة خفية في الشارع من خلال منديلها الشاشي الذي تضعه النساء على وجوههن و الملاءة التي تغطي القسم الباقي من جسدهن حين يخرجن ، في عشية الزفاف ينقل الجهاز الذي يهبه الأب لإبنته في موكب فخم ، و هذا الجهاز يكون كبيراً أو صغيراً على حسب ثروة الشخص ، و هو يتألف من الملبوس و أدوات الطبخ و أدوات البيت كالمسرجة و المقعد وحزمة فتائل و الأشياء الأخرى التافهة الثمن ، و تحمل كل قطعة من هذه القطع على حدة حتى يقال أن أن جهاز بنت فلان نقله كذا و كذا من الرجال ، و لدى وصول هذا الجهاز يسلم إلى قريبات العريس و تتعالى الزغاريد ، و يتعمن بذلك الصراخ لساعات طويلة ، و هذه الزغاريد هي ملذة توحى حب المنافسة لذى النساء و هو الأمر الذي يحملهن على إغتنام كل مناسبة لإظهار

هذه البراعة و التفوق ، أما عقد الزواج فينظمه القاضي بناء على شهادة أنساب العرسان و العروس لا ترى عريسها إلا يوم الزفاف و في برهات قليلة تتمكن فيها من اختلاس النظر إليه ، فكل فتاة تحرم نفسها مضطرة إلى إغماض عينيها سبعة أيام كاملة ، و في هذه الفترة تخضع للزينة المخصصة للفتيات المتزوجات ، و هذا التبرج يؤدي إلى مسخ الوجه فيصبح كأنه وجه مستعار حقا ، ثم تدهن اليدان و الرجلان العارية دائما.²³

4.4 حفظ القرآن و حفلته :

إن المدارس العامة قليلة جدا و لا يعلم فيها إلا القراءة و الكتابة بدون اتباع قاعدة ، و الأولاد الذين يراد أن يتلقوا دروسهم يتعلمون قراءة القرآن ، و حفظ القرآن كان يتعب التلاميذ الذين لم يكونون يعرفون قيمته ، و لذلك فإنهم كانوا يوعدون بأجمل الأمانى ، فيوم ما يعلن محفظ القرآن ختم التلميذ للمصحف فإن والده يعطيه بخشيشا و يدعوه لحفلة تقام في الغد ، و يدعى لهذه الحفلة جميع الأقارب و الأصدقاء ، كما أن جماهير من الفضوليين لا تتأخر عن الانضمام إليهم ، و يلبس الصبي ثيابا فخمة جديدة ، و يركب حصانا مزينا و يتبعه رفقائه و على رأسهم شيخه ، أما المصحف فيوضع على طبق و حوله الجميع يتغنون بالشكر ، و يساهم النساء في هذا الحفل بالزغاريد ، هؤلاء النساء لا يجزأن على إبداء أصواتهن إلا في مثل هذه المناسبات إن الشيوخ و سدنة المساجد هم أيضا مدعوون لحضور هذا الإحتفال ، فيقومون أثناء هذا بالطواف الإحتفالي بتمثيل رواياتهم الدينية ، بعد أن ينضم إليهم المتعصبون الذين يوهمون الناس أنهم وقعوا في غيبوبة ، و لكي ينهضوهم فإنهم يهزونهم بعنف على نغم الطنبور الذي اصطحبه تلاميذ الشيخ وهم يغنون ، و ذلك ما يؤلف مع الموسيقى الأخرى و صراخ النساء و ضجيج الجمهور ضجة مخيفة يصعب أن يتصورها العقل.²⁴

4.5 النحو :

تجد في بعض الأحيان شبانا مسلمين يدرسون النحو عن علماء مسيحيين ، نظرا لتفوق الأصول الحديثة التي اتبعها هؤلاء بعد أن وضع أصولها مطران ماروني في حلب ، و إن فائدة هذه الطريقة تعتبر ظاهر لأنها تعلم بسنتين ما لا تستطيع أن تعلمه الكتب الأخرى في عشر سنوات.²⁵

5. التفاعلات الإقتصادية للمجتمع الشامي :

5.1 الزراعة :

5.2 الصناعة و التجارة:

تعتبر الأسواق من أهم أجزاء المدن في الشرق فيرى في كل مدينة مهمة كثير من الأبنية التي يتألف من مجموعها حي للتجارة وحدها يسمى السوق ، و تحتوي السوق على أروقة طويلة مغطاة بألواح أو حصر ، و

²³ نفس المصدر، ص، 205

²⁴ حمد عرفات القاضي ، 2010م، الإسلام والغرب إشكالية الصراع وضرورة الحوار ، ط1، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 123.

²⁵ نفس المصدر، ص، 140

تحتوي على دكاكين متجمعة على حسب أنواع السلع ، و يضاف نوع السلع التي تباع في الرواق إلى كلمة السوق فتعين بذلك فيقال مثلاً سوق الأسلحة ، سوق الأزياء ...، و إذا ذهبت للمدن الكبرى لم تجد غير السوق مكاناً للبيع و لو كانت السلع مما يستهلك يومياً ، و السوق هو ملتقى الناس المفضل في المشرق ، و تقصده النساء كثيراً و يقضين فيه ساعات طويلة ، و الرجال هم وحدهم من يقوم بإدارة شؤون الدكاكين الموجودة في الأسواق ، و ينتظر التاجر المشتري أمام دكانه دون أن يزعج أحد ، لكن التجار اليهود كانوا يزعجون المارة و يلحون عليهم من أجل شراء بضاعة معينة و لا يتخلص الزبون منهم إلا بصعوبة كبيرة ، و من عادات التاجر الشرقي أن يطلب لأول وهلة خمسة أمثال ما تساويه سلعته ، كما أن من العادات الثابتة ألا تتم الصفقة إلا بعد جدل طويل ، و في بعض الأحيان يستمر الأمر لمدة أيام و قد ذكر غوستاف لوبون أنه إستغرق مدة أسبوع من أجل شراء نارجيلة نحاسية مكفتة بالفضة و ذكر أن التاجر لم يتنازل عن السعر الذي طلبه إلا بصعوبة و لذلك على المشتري الصبر يقف المشترون أمام الواجهة التي توازي الدكان عرضاً و ارتفاعاً ، و عادة ما تجد صديق صاحب المحل يأتي للمحل من أجل اللهو لا الشراء ، و يقبع في زاوية قبالة صاحب الدكان ، و بما أن القهوة موجودة في كل الأسواق فتصب القهوة المرة للضيف بناء على إشارة صاحب الدكانة ، و يقدم له الغليون لأنه كما يقال لا لذة توازي شرب جرعات من القهوة و التدخين عليها ، فتتمازج و تطيب تتميز دمشق بأسواقها التجارية و بنشاطها التجاري الواسع القائم بينها و بين بقية الشرق و هو الأمر الذي يمنحها حياة عظيمة و طابعا شرقيا خاصا ، و القوافل التي تأتي من بغداد توصل إليها منتجات فارس و الهند ، ثم تحمل من دمشق النسائج الحريرية المشهورة و الجلود المدبوغة و البزوز إضافة إلى النحاس المكفت بالفضة.²⁶

6. خاتمة:

وفي الختام نخلص إلى أن الرحالة كان لهم اهداف من هذه الكتابات منها ما يخدم اجندة سياسية استعمارية، تهدف إلى السيطرة على الشرق من خلال ما يعرف دراسة المجتمعات قصد التمهيد للاستعمار حتى يستطيع سيطرة على خياراتها وبت السموم في مقوماتها الجيو استراتيجية، فقليل منهم من كان له حب الاكتشاف والبحث في تاريخ والحياة الاجتماعية للشعوب، ويقال أن الرحالة كانوا عبارة عن مجندين من طرف السلطات الاستعمارية تدربوا في الثكنات العسكرية في اقصى الظروف من أجل دخول البلاد من اجل جلب المعلومات قصد تمهيد الاستعمار تلك البلاد التي احتلوها وهذا ما قامت به مثلاً فرنسا مع جل مستعمراتها وخاصة الجزائر مع الرحالة الالمان.

وكانوا عبارة عن عيون الغرب على الشرق من اجل تغلغل في المجتمع وافكاره وطريقة عيشة حتى يمهّدوا للأعمال، الامبريالية ولولم يكن هناك رحالة واستشرق لما نجحت الحملات الاستعمارية في المستعمرات

5. قائمة المراجع:

1. حمد عرفات القاضي ، 2010م، الإسلام والغرب إشكالية الصراع وضرورة الحوار ، ط1، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 123.
- 2 ادوارد سعيد ، تر كمال ابو ديب، 1984م الاستشرق "المعرفة، السلطة، الإنشاء"، ط2، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية، ص50.
- 3 جان دي جاك واردنبرغ ، 2014م المستشرقون، ترجمة، أنيس عبد الله الخالق محمود، المستشرقون ط1، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص151
- 4 شانتال ميلون دلسول ، 1994م، ترجمة: جورج كتورة، الأفكار السياسية في القرن العشرين، ترجمة، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص25
- 5 صادق جلال العظم ، 1980م الاستشرق والاستشرق معكوساً، ط1، بيروت : دار الحداثة، ص35
- 6 عبد الإله بلقزيز ، 2011م، الاستشرق وحدوده المعرفية المنهجية، ، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص44.
- 7 عبد الله إبراهيم، 2010م، المركزية الغربية، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص68.
- 8 فرانثيسكو كابرييلي، تر، عبد الجبار ناجي، 2011م، محمد والفتوحات الإسلامية، ط1، بيروت، المركز الأكاديمي للأبحاث، ص89
- 9 فرانثيسكو كابرييلي، هاشم صالح، 2000، الثناء على الاستشرق، ط1، بيروت، دار الساقى، ص61
- 10 قيس ماضي فرو، 2013م، المعرفة التاريخية في الغرب مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، ط1، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص97
- 11 مجموعة باحثين، تر هاشن صالح، 2000، الاستشرق بين دعائه ومعارضيه، ط2، بيروت، دار الساقى، ص75.
- 12 محمد عابد الجابري، 1980م، نحن والتراث "قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط1، بيروت، دار الطليعة، ص152
- 13 محمد نور الدين افايه، 2006م، الإسلام في متخيل الغرب "في مكونات الصور النمطية الغربية عن الإسلام، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص24

- 14 محمد نور الدين افايه، 2009م، الأنا والآخر" في مكونات الصور النمطية للمجتمع الشامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 212
- 15 هشام جعيط، 2007م، أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة، ط3، بيروت، دار الطليعة، ص 198
- 16 وجيه كوثراني، 2000م، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل "دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، بيروت، دار الطليعة، ص 310
- 17 غوستاف لوبون، تر، محمد حسنين، 1999م، التاريخ والخضارة، مصر ، القاهرة، دار الهدى للنشر، ص 325
- 18 وجيه كوثراني، 2000م، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل "دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، بيروت، دار الطليعة، ص 310
- 19 نفس المصدر، ص 311
- 20 نفس المصدر، ص 312
- 21 هشام جعيط، 2007م، أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة، ط3، بيروت، دار الطليعة، ص 200
- 22 نفس المصدر، ص 204
- 23 نفس المصدر، ص 205
- 24 حمد عرفات القاضي ، 2010م، الإسلام والغرب إشكالية الصراع وضرورة الحوار ، ط1، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص 123.
- 25 نفس المصدر، ص 140
- 26 نفس المصدر، ص 146